مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (39) العدد (2)2017
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (39) No. (2) 2017

المفاجأة وكسر أفق التوقع
(خطبة زياد بن أبيه في البصرة أنموذجاً تطبيقيّاً)

الدكتور محمد إسماعيل بصل[1]
أكسم فياض[2]

(تاريخ الإيداع 18 / 9 / 2016. قبل للنشر في 19 / 3 / 2017)

□ ملخّص □

يقدِّم البحث في مقاربته هذه مجموعة من المحاولات لبيان مفهوم "المفاجأة وكسر أفق التوقُّع"، وآليَّة تطبيقها على نصٍّ تاريخيٍّ غير ذي صلة مباشرة بالنظريات اللسانيَّة الحديثة، وهو "خطبة زياد بن أبيه في البصرة أنموذجاً تطبيقياً". وغير خاف انتماء كلٍّ من جانبي المقولة النظريِّ والتطبيقيِّ إلى حقلين معرفيَّين يختلف كل منهما عن الآخر اختلافاً كبيراً.

نلحظ هذا المفهوم عند زياد بن أبيه في أوَّل كلمةٍ باشر فيها خطبته، حيث أغفل البدء بالبسملة، متجاوزاً ما هو متعارف عليه في افتتاحيَّات الخطب، كأنَّه يتابع نصّاً أو فعلاً كلاميّاً سابقاً، وهنا يبدأ الجانب التطبيقيُّ برصد مفاهيم التوقُّع وكسر أفقه في الخطبة، بناءً على معطيات يقدِّمها علم اللغة، واللسانيات الحديثة في نظرية التلقِّي، والتداوليَّة، عبر مفاهيم الاستدلال والبرهنة والحجاج، والفعل الكلامي والقصديَّة وسواها، وكيف يربط التحليل النصيُّ بين مدلولات هذه المفاهيم في البنية اللغويَّة النصيَّة، وعلاقتها بكسر أفق التوقُّع ومدى تأثيرها في الفعل الخطابي، والفعل الناتج منه.

ولعلَّ المنهج التداوليَّ يكون أمثل المناهج في مقاربة خطبة زياد وتحليلها، ومعرفة آثارها في المتلقِّي، بوصفه علماً يدرس اللغة في سياق الاستعمال.

الكلمات المفتاحية: التلقِّي، كسر أفق التوقُّع، الخطاب، التداوليَّة.

[1] أستاذ ، قسم اللغة العربية ، جامعة تشرين، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة تشرين، اللاذقية، سورية.
2 طالب دكتوراه، قسم اللغة العربية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة تشرين، اللاذقية، سورية.

مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (39) العدد (2)2017
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (39) No. (2) 2017

Surprise and Breaking the Horizon of Expectations (Ziad Bin Abeeh's Speech in Al-Basra as an Applied Model)

Dr. Mohammad Basal*
Aksum Fayyad **

(Received 18 / 9 / 2016. Accepted 19 / 3 / 2017)

□ ABSTRACT □

This research paper presents a number of attempts in order to clarify the concept of "surprise and breaking the horizon of expectations" .It also tends to present the mechanism for applying this concept to the historical text which is not directly realated to the modern theories of linguistics. It's very clear that both sides of the concept the theoretical side, and the partical one in Ziad Bin Abeeh's speech in AL-Basra as an applied model, belong to two totally different fields of knowledge.

We notice this concept with Ziad Bin Abeeh's at the very first word of his speech, where he overlooked starting with the Basemla, overriding, Thus, the protocols of discourse openings , as if he were proceeding a text or a precedent act of speech. At this particular point, the practical side begins to observe the concept of expectation in speech based on the data introduced in modern linguistics in reception theory and pragmatics through the concepts of inference and reasoning , and the act of speech and intentionality, etc..In addition to that, the textual analysis connects the implications of these concepts within the linguistic textual structure, and its relation with breaking the horizon of expectation, and to what extent it affects , the discourse act and its resulting act.

Thus, pragmaticcs, which is the branch of linguistics dealing with language in use seem to be the best approach to the analysis of Ziad's speech and figuring out its effects on the recipient.

Key words: Reception , Breaking the horizon of expectations , Discourse , pragmatics.

* **Professor of language and linguistics at Tishreen University, Faculty of Arts and Humanities, Department of Arabic .**
** **Postgraduate student, Tishreen University, Faculty of Arts and Humanities, Department of Arabic .**

مقدمة:

خضعت النصوص الفنيَّة، والأدبيَّة منها على وجه التحديد، لمستوياتٍ متنوَّعة من الدراسة والتحليل، وفق مناهج لسانيَّة مختلفة على مرِّ التاريخ الفني أو الأدبي، وتاريخ النقد بوجهٍ عام. وقد شهدت دراسة الخطاب في الآونة الأخيرة اتجاهات مختلفة تهدف إلى الوصول إلى مقاربة منهجية في دراسة الخطاب؛ تهتمُّ بالخطاب بوصفه كتابةً وفعل إبداع، وبالقارئ الذي يتوجَّه إليه هذا الخطاب، بعد أنْ ظلَّت الدراسات الأدبيَّة بادئ الأمر تنظر إلى النصوص بوصفها مسرحاً لدراساتٍ تاريخيّةٍ، وظروفٍ حكمت نشأتها أو أسهمت في تطورها. وإنَّ هذه الدراسات، وإنْ لم تكن قد ألمَّت بالنصوص من جوانبها كلِّها، فقد أسهمت بشكلٍ أو بآخر في إيجاد أسس عمليَّة لابتداع نماذج ومناهج لسانيَّة جديدة تضيف إلى سابقاتها، وتؤسِّس لما يليها.

من هنا ظهرت الحاجة إلى اجتراح أسس ومعايير جديدة لدراسة النصوص وفق علاقتها بقرَّائها، أو متلقِّيها؛ فالمبدع يبدع للناس لا لذاته، لذلك يكتسب العمل الإبداعي خلوده واستمراره من خلال الذائقة الفرديَّة أو الاجتماعيَّة التي تقيِّمه وتحكمه بالبقاء أو الفناء، وفي هذه المسافة الفاصلة ـ الواصلة، نشأت نظريَّة التلقِّي التي عنيت بالقارئ، وبالنصِّ على السواء.

يبدأ البحثُ الحديثَ عن التلقي بمعناه اللغوي ومفهومه الاصطلاحي، وآليَّة تطبيقه على النصوص المدروسة، ثم ينتقل إلى الحديث عن المفاجأة وكسر أفق التوقُّع أيضاً كما جاء في اللغة، وكما تعارف اللغويون عليه في الاصطلاح؛ وكيف يمكن للذائقة النقدية أو اللغوية اللسانية أن تقيّم عملاً ما، وتحكم عليه من خلال معطيات التلقِّي وكسر أفق التلقِّي، ثم ينتقل البحث إلى الحديث عن مفهومي الخطاب والخطبة وعلاقتهما بكسر أفق التوقع، فيبدأ التعريف بالخطاب والخطبة لغةً واصطلاحاً، وعن العلاقة بين الخطاب والخطبة لسانياً وبلاغياً وأدبيّاً، وعن الكيفيَّة التي تتمُّ بها الدراسة اللسانيَّة للخطبة بوصفها خطاباً لا بدَّ أنْ يتوافر على متلقٍّ مباشر يقوم بفعل التلقِّي.

التلقِّي لغةً واصطلاحاً:

التلقِّي لغة : جاء في لسان العرب (فلان تلقى فلاناً: أي استقبله، وتلقاه استقبله)[1]، وفي الإنكليزية: (Reception)، أي تلقٍّ أو استقبال، و(to receive): أي تلقَّى واستقبل وأخذ[2].

يبدو واضحاً أنَّ معاني التلقِّي في اللغتين متقارب حد التطابق، بيد أنَّ بُعداً آخر يضاف إلى التلقِّي في اللغة العربية؛ أنَّه يأتي متلازماً مع مفردة أو نصٍّ أو شيءٍ (يتلقَّى شيئاً، أو تلقَّى كلمة..)، لأنَّ معنى المفردة لا يكتمل إلا بإضافتها إلى ما يصاحبها، ومثالها في النص القرآني: * فَتلقَّى آدمُ كلماتٍ منْ ربِّهِ فتابَ عليه* سورة البقرة آية (37)، ويستتبع ذلك إيحاءات نفسيَّة وذهنيَّة وعمليَّة وسلوكيَّة تترتَّب على فعل التلقِّي، ممَّا يوحي بأنَّ فعل التلقِّي هو فعل مشاركة وتفاعل مع منتج النص، ولذلك يرتبط التلقي بالتداولية (بوصفها علما يدرس اللغة في مجال الاستعمال)[3]؛ **فالتداولية** ليست علماً لغوياً محضاً، بالمعنى التقليدي، بل شبكة مفاهيمية تضم مستوياتٍ متداخلة، كالبنية اللغوية وقواعد التخاطب، والاستدلالات التداولية، العمليات الذهنية المتحكمة في الإنتاج والفهم اللغويين، وعلاقة البنية اللغوية بظروف الاستعمال[4]. والتداولية في دلالتها اللغوية من التداول مصدر تداول، يقال: دال يدول دولاً، انتقل من حالٍ إلى حال،

[1]- جمال الدين أبو الفضل، محمد بن منظور. لسان العرب، تحقيق: عامر أحمد حيدر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2005، مادة (لقي).
[2]- روحي البعلبكي. المورد، قاموس عربي إنكليزي، دار العلم للملايين، بيروت، 1996، ص365.
[3] - د. مسعود صحراوي. التداولية عند العلماء العرب، دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 2005، ص16.
[4]-المرجع السابق، ص16، بتصرف.

وأدال الشيء جعله متداولاً، وتداولت الأيدي الشيء: أخذته هذه مرة وتلك مرة [1]؛ وفي المفهوم الاصطلاحي تعرف التداولية "pragmatics"، بأنها اتجاه في الدراسات اللسانية، يُعنى بأثر التفاعل التخاطبي في موقف الخطاب، ويستتبع هذا التفاعل دراسة كل من المعطيات اللغوية والخطابية المتعلقة باللفظ، وبخاصة المضامين والمدلولات التي يولدها الاستعمال في السياق[2]؛ فهي (لا تهتم بالملفوظات اللغوية التي ينتجها المتكلم وحسب، بل بالظروف التي تمَّ فيها هذا الإنتاج، وبالعلاقات القائمة بين المتكلم والمتلقي بدءا من اختيار الملفوظ، وانتهاء بقوانين توزيع أدوار الكلام. من هنا فإن مصطلح "تداولية" يشتمل على معنى المداولة بين شخصين على الأقل "متكلم– متلق" ويشتمل على الشيء الذي يتداول وهو العلامات بدوالها ومدلولاتها)[3].

التلقي اصطلاحاً: يخرج التلقي في مفهومه الاصطلاحي عن دلالته المعجمية الحرفية ليكتسب أبعاداً جديدةً، فهو كما عرَّفه **حجازي:**(مجموعة من المبادئ والأسس النظرية التي شاعت في ألمانيا في منتصف السبعينات على يد مدرسة **كونستانس،** تهدف إلى الثورة ضد البنيوية والوصفية، وإعطاء الدور الجوهري في العملية النقدية للقارئ، باعتبار أن العمل الأدبي منشأ حوار مستمر مع القارئ)[4]، من هنا يبدو أن فعل التلقي يأخذ سمات لا تقتصر على الفعل بذاته، إنما يكون مجموعة من المبادئ الناظمة لعلاقة القارئ بالنص الذي يتولَّاه بالقراءة، وهذه المبادئ تهدف إلى الاهتمام المطلق بالقارئ، والتركيز على دوره الفعَّال كذات واعية لها النصيب الأكبر من النص وإنتاجه وتداوله، وتحديد معانيه[5]، مما يعني أن الدراسات اللسانية الحديثة لم تعد تعنى بالنص بوصفه كلاماً فقط، أو بنية لغوية ناتجة من عملية ذهنية، وإنما تأثير هذا النص في جمهور ما، ومدى قدرة هذا الجمهور (المتلقي) على التفاعل مع هذا الناتج الإبداعي، وما يتركه في الذائقة من علامات فارقة. وهذه الذائقة المتلقية لا تنتج ردود أفعالها بناءً على معنى جزئي يقدِّمه النصُّ في أحد مستويات دلالته؛ بمعنى أنَّ هذه الذائقة لا تستقبح نصاً أو تستحسنه إلا عندما يخلص هذا النص إلى خاتمته، أيْ أنْ ينجز مقدماته على المستويات كافة، (فالعمل الفني لا يكتمل إلا عندما يستقبل المتلقي العمل الكلي، وهذا الأخير يتحقق بتتابع العلامات... إنَّ كلَّ مكون من مكونات العمل الفني يحمل معاني جزئية، ويتحقق المعنى الكلي بتتابع هذه المعاني الجزئية)[6]، فتأتي الاستجابة متدرِّجة بناءً على المقولات النصيَّة، إمَّا حسنة وإمَّا سيئة، غير أنَّ هذا لا يلغي إمكانيَّة وجود نصوص تفترض استجاباتٍ بناء على مطالعها، فالانطباع الأوَّل الذي يقدِّمه النص قد يقود إلى قبول وتفاعل مع النصِّ حتى ينتهي، أو نفور يزيد المسافة التي تبعد النصَّ عن متلقيه، بشكل لا تعود منه المعاني الجزئية التي تقود إلى المعنى الكلي مفيدة في إنجاز التذوُّق الشمولي للنص.

وعلى هذا الأساس يغدو العمل الفني، بوصفه قيمة أنموذجاً معقداً للتواصل؛ لأنه يفترض شروطاً ومعايير لإنجاح التواصل، وهو ليس قيمة فقط، بل (علامة وبنية وقيمة في الوقت ذاته، وهو لأجل هذا علامة مركبة، وهذا يؤدي وظيفته بطريقتين: بوصفه علامة موصلة لفكرة، وبوصفه بنية مستقلة بذاتها) [7]، وقد ينجح في إيصال هذه الفكرة

---

[1]- ابن منظور. لسان العرب، مادة (دول).

[2]- ينظر: آن روبول؛ وجاك موشلار. التداولية اليوم علم جديد في التواصل، ترجمة د. سيف الدين دغفوس، ود. محمد الشيباني، مراجعة د. لطيف زيتوني، المنظمة العربية للترجمة، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت لبنان، ط 1، تموز 2003، ص29. و ينظر: عثمان بن طالب: البراغماتية وعلم التراكيب بالاستناد إلى أمثلة عربية، سلسلة اللسانيات، عدد (64)، تونس، المطبعة العصرية، 1986، ص125.

[3] - د. محمد إسماعيل بصل. نحو نظرية لسانية مسرحية (مسرح سعد الله ونوس نموذجا تطبيقيا)، دار الينابيع للطباعة والنشر، سوريا دمشق، د.ط، 1996، ص176.

[4]-سمير سعيد حجازي. قاموس مصطلحات النقد الأدبي المعاصر، دار الآفاق العربية، ط1، 2001، ص145.

[5]-ميجان الرويلي؛ وسعد البازعي. دليل الناقد الأدبي (إضاءة لأكثر من سبعين تياراً ومصطلحاً نقدياً معاصراً)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط2، 2005، ص282.

[6]-عبد الجليل مرتاض. في عالم النص والقراءة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د.ط، 2007، ص34.

[7]-عبد الناصر حسن محمد. التوصيل وقراءة النص الأدبي، المكتب المصري لتوزيع المطبوعات، القاهرة، د.ط، 1999، ص78.

المرجوَّة، وقد يفشل، وهذا مرهون بالمتلقي. أما بوصفه بنية مستقلة بذاتها، فتسري عليه قوانين علم اللغة والدراسات الأسلوبية، وعن وصفه بالعلامة يرى **موكاروفسكي** (أنَّ العمل الفني علامة مركبة؛ أيْ حقيقة تتوسَّط بين الفنان والمخاطب، والجمهور، المستمع، القارئ) [1]، وتضيف رؤية **موكاروفسكي** للعمل الفني مفهوم الحقيقة التي تقف على مسافة واحدة من الفنان ومن الجمهور (المتلقي)، وهذه الحقيقة تكتسب تصديقها أو تكذيبها بناءً على قدرتها على ما هو ساكن في نفس المتلقي، وفي رؤية **فولفانغ آيزر** * للعمل الفني أو النص، نلتمس إضاءة على مقولة **موكاروفسكي، فآيزر** يرى أنَّ النص بوصفه معطى مادياً هو إجراء بسيط ليس بإمكانه إيجاد واقعه إلا بفعل القارئ [2]، من الواضح وجود قيمة يمنحها آيزر تعلو على قيمة النصِّ، أو لنقل قيمة تضاف إلى النصِّ فتمنحه ثراءً وجودياً، وهي قيمة التلقي، فمن دون هذا المتلقي ليست هناك من عملية إبداعية، فالنص المُبدَع، يحيا من خلال جمهور يعزز حضوره ويؤكد ثباته ورسوخه، وبتعبير آيزر في النص المعنى لا يكون للشرح إنما للعيش [3] بطريقة ثابتة ومستمرة، أو قد يكسر هذا الثبات إذا اعتاد المعنى العيش بطريقة محددة، ثم انتقل ليحيا حياة مختلفة في نص آخر، وقد تكون حياة المعنى الجديدة لا تطابق الحياة السابقة، لا في الطريقة ولا في ظروف النشأة، وهذا ما يمكن أن يطلق عليه لسانياً كسر أفق التوقع؛ فماذا يعني "كسر أفق التوقع"؟.

مفهوم أفق التوقع أو الانتظار:

تقدِّم مقولة أفق التوقُّع مفهوم الرؤيا أو المساحة التي ينتهي عندها ما يريد أو يتنظر المتلقي من نص ما، أو مبدع أو (مرسل) بالوصف اللسانيِّ الشموليِّ. ويعدُّ هذا المفهوم من المفاهيم التي ركَّز عليها **ياوس**، وهو عبارة عن ذلك الفضاء الذي تتمُّ من خلاله عمليَّة بناء المعنى ورسم الخطوات المركزيَّة للتحليل، فيبدو وكأنه أداة، أو معيار يستخدمه المتلقِّي لتسجيل رؤيته القرائية، بوصفه مستقبلاً لهذا العمل أو ذاك[4].

يبدو من خلال تعريف **ياوس** أنَّ **أفق التوقُّع** منوط بما يقدمه النص من معان تقوم عليها عملية الإدراك الشامل، غير أنَّ هذا قد لا يصدق على الأعمال الإبداعية كلِّها، فمن جانب آخر قد يبدو أنَّ قارئاً ما، أو مجموعة من القراء، قد اعتادوا نمطاً من الخطابات لمبدعٍ ما، فكان انتظارهم لمنتجه الإبداعي ضمن شروط اعتادوا التفاعل معها، أو تقبُّلها، من دون أنْ يكون هذا النص قد خرج إلى الوجود بعد، فالتوقُّع بناءً على معطيات لسانيَّة سابقة كائنة، وما يمكن أنْ تكون، وليس من الضرورة بمكان أنْ يكون أفقُ توقُّعهم أو انتظارهم مطابقاً لما درجت عليه عادة الانتظار، فقد **يُمنى الانتظار بالخيبة** إذا كان المبدع (المرسل) قد حول في مفاهيمه أو توجهاته الخطابية، وطريقة عرضه أو صياغته، في أيٍّ من هذه المبادئ أو في مجموعها، وفي هذا الصدد لا يرى ياوس أنَّ هذا التحوُّل يضرُّ بالعمل الفنيِّ، بل على العكس من ذلك؛ لأنَّ (الأعمال الأدبية الجيدة وحدها القادرة على جعل انتظار قرائها يمنى بالخيبة، أما

---

[1]- روبرت هولب. نظرية التلقي، مقدمة نقدية، ترجمة: عز الدين اسماعيل، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، ط1، 2000، ص59.

*** - يرتبط اسم آيزر بمدرسة جمالية التلقي المنبثقة عن جامعة كونستانس في ألمانيا، وقد اهتم آيزر بمفهوم صيرورة القراءة، فمن غير هذا المفهوم لا يمكن فهم جمالية التلقي، وقد أسهمت أفكاره في خروج مصطلح عودة القارئ، بوصفه مصطلحاً أمريكياً بني على حسن استقاء أعمال آيزر، وقدم الدليل الموجه لنظرية التلقي عبر عملين مهمين هما: القارئ الضمني، نماذج التواصل في النثر التخييلي من بونيان إلى بيكيت 1974، والثاني: فعل القراءة ، نظرية جمالية التجاوب1978. ينظر، المرجع السابق، ص 12-13.**

[2]- ينظر: Izer, wolfgang, l,acte de lecture,the,oridele,ffesthe, tique, traduit par: Evelynesznyser, Pieremardazee´dideure- 1976- p: 120.

[3]- ينظر Izer, wolfgang, l,acte de lecture,the,oridele,ffesthe, tique, traduit par: Evelynesznyser, Pieremardazee´dideure- 1976- p49.

[4]- ينظر: Jauss (H.R) pour uneesthethetique de larecption, traduit par: Cloudemaillard, preface: Jean starobinski, edgallinard, PARIS, 1978, P: 14

الأعمال البسيطة فهي تلك التي ترضي آفاق انتظار جمهورها، وإن مآل هذه الأعمال هو الاندثار السريع) [1]، ويمكن القول إنَّ للنص الإبداعي علاقة تلازمية مع المتلقي ومن دونه لا يكون هناك نص ولا يكون هناك تعبير.

يضع **ياوس** في تعريفه هنا بداية التلقي المثالي في نظره، وينقل العبء النقدي الأكبر المُلْقَى على عاتق المتلقي، كي يضع منتج النص والنص والمتلقي على مسافة واحدة في شروط إنجاح عملية التلقِّي، فيكون النص هو البوصلة التي توجِّه عملية التلقي، ولا تعود المعايير التي استقاها المتلقي من تجاربه السابقة مع النصوص الإبداعية مصدر قبوله؛ إذ يفتح مفهوم المفاجأة أو كسر أفق التوقع الباب لمعايير جديدة قد تضع المعايير القديمة على حافة الشك أو الانقلاب عليها، وربما تعميقها وتأصيلها. لكن ما يبنى على تعريف **ياوس** في هذا المقام، أنَّ ما هو غير سائد أو مألوف وفق أسس التلقي الجديد، قد يصبح سائداً فيما بعد بورود كسر آفاق متوالية؛ من هنا يغدو الحديث عن المفاجأة أو كسر أفق التوقُّع من الأهمية بمكان قد يوازي أهميَّة التلقِّي بوصفه نظريَّة. وهذا المفهوم (ينتج عن التعارض الحاصل من عدم استجابة النص لانتظار المتلقِّي، إذْ يخيب ظنُّه في مطابقة معاييره السابقة مع معايير العمل الجديد، وهذا الأفق تتحرك في ضوئه الانحرافات والانزياحات عن السائد، لذلك فلحظات الخيبة مهمَّة جداً بالنسبة للمتلقِّي حيث يحدث فيها تأسيس الأفق الجديد)[2].

تختلف طبيعة الدراسات التي تُعنى بالتلقِّي، وبكسر أفق التلقِّي، حسب طبيعة النصوص المدروسة، لذلك يجب قبل مباشرة الحديث عن كسر أفق التوقُّع بالمفهوم الشموليِّ، تحديد نوعيَّة الدراسة المخصوصة بالبحث. وفي هذا المقام تتوجه العناية إلى الحديث عن **كسر أفق التوقُّع في الخطابة** بوصفها فناً كلامياً، وبوصفها أيضاً أنموذجاً للتواصل يحوي خطاباً يُتوجَّه به إلى جمهور من الناس، وهذا يفترض الحديث عن الخطاب بوصفه نظاماً كلاميّاً يحوي رسالة ما، وعن الخطبة بوصفها خطاباً.

مفهوم الخطاب والخطبة وعلاقتهما بكسر أفق التوقُّع:

تعريف الخطاب لغة واصطلاحا:

لغة: خَطَبَ: الخَطْبُ: الشأن والأمر، صغر أو عظم، وقيل هو سبب الأمر، وتقول: هذا خَطْبٌ جليل، وخطب يسير. والخطب: الأمر الذي تقع فيه المخاطبة، والشأن والحال [3]. وفي الكافي ورد تعريف الخطاب: مصدر خاطب: المواجهة بالكلام، ويقابلها الجواب ـ الرسالة، والخطابة: مصدر خطب: عمل الخطيب وحرفته، والخُطَب: مصدر خطْب: الحال والشأن؛ الأمر الشديد الذي يكثر فيه التخاطب، وغلب استعماله على الأمر العظيم المكروه، وجمعه خطوب، والخطبة: مصدر خطب: ما يخطب به من الكلام[4].

اصطلاحاً: ورد في معجم المصطلحات العربية: الخطاب، الرسالة: نص مكتوب ينتقل من مرسل إلى مرسل إليه، يتضمن أنباء لا تخص سواهما، ثم انتقل مفهوم الرسالة من مجرد كتابات شخصية إلى جنس أدبي قريب من المقال في الآداب الغربية سواء أكان نظماً أمْ نثراً، أو من المقامة في الأدب العربي القديم [5]. وقد أورد **محمد عناني** في معجم المصلحات الأدبية الحديثة تعريفاً لسانياً حديثاً للخطاب، ومعناه: اللغة المستخدمة، أو استخدام اللغةLANGEGEINASE، لا اللغة بوصفها نظاماً مجرداً، لكن ثمة ضروباً منوعة من الدلالات لهذا المصطلح، حتى

[1]- ينظر: السابق، ص14.
[2]-بشرى موسى صالح. نظرية التلقي أصول وتطبيقات، المركز الثقافي العربي، الدار لبيضاء، ط1، 2001، ص47.
[3]- ابن منظور، لسان العرب، مادة (خطب).
[4]-محمد الباشا. الكافي، معجم عربي حديث، شركة المطبوعات للنشر والتوزيع، بيروت، 1992، ص414.
[5]-ينظر: مجدي وهبة وكامل المهندس. معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان، بيروت، ط2، 1984، ص190.

في نطاق علوم اللغة، وهذا التعريف الذي ذهب إليه **عناني** يقارب من حيث المضمون الفكرة التداولية القائمة على استعمال اللغة، فالتداوليَّة تهتمُّ بدراسة استعمال اللغة، وليس البنية اللغويَّة في حد ذاتها، وتدرس اللغة في طبقاتها المقاميَّة المختلفة، أيْ باعتبارها كلاماً محدَّداً صادراً من متكلِّمٍ محدَّد، وموجهاً إلى مخاطب محدَّد، بلفظٍ محدَّد، في مقامٍ تواصليٍّ محدد، لتحقيق غرضٍ تواصليٍّ محدَّد[1].

أما في المعاجم الأجنبية: فإن الخطاب: مصطلح ألسنيٌّ حديث يعني في الفرنسية: "DISCOURS"، وفي الإنكليزية "DISCOURSE"، وتعني حديثاً، محاضرةً، خطاباً، خَاطَبَ، حاضَرَ، ألقى محاضرة، وتحدَّث إلى...[2]

تقدِّم التعريفات السابقة تحديدات لمفهوم الخطاب بوصفه نصّاً كلاميّاً يتوجَّه إلى جمهور ما، وهذا النص قد ينطوي على الفعل الكلاميِّ وليس النصيِّ فقط، بمعنى (القول، التحدث المباشر)، أي قد ينطوي على البعد السماعي المباشر في عملية إرساله وتلقيه. وفق هذا المبدأ؛ يبنى أفق التوقع على متضمنات النص، وهذه المتضمنات يفترض أنْ تحوي معايير أسلوبية ونصية تُبنى عليها المواضعات الفكريّة التي تؤسس لمفهوم التلقي.

وإذا أردنا أنْ نحدِّد مفهوماً للخطبة بالنظر إلى علاقتها بالخطاب فقد ننطلق من تحديد مفهومها لغويّاً، فالخطبة مصدرها (خطب) كالخطاب وجاء في لسان العرب أنها (اسم للكلام الذي يتكلَّم به الخطيب) [3]، و(هي صفة راسخة في نفس المتكلم، يقتدر بها على التصرُّف في فنون القول لمحاولة التأثير في نفوس السامعين، وحملهم على ما يراد منهم بترغيبهم، وإقناعهم)[4]: تتضمن خطاباً وكلاماً، وتفترض ضمناً وجود الخطيب الذي يقوم بالتوجه بالخطاب إلى الناس، ويمكن القول إنَّ الخطاب بالمعيار الاصطلاحي يتضمَّن الخطبة بوصفها نصّاً كلاميّاً، لكنه يتعدَّاها إلى ما سواها، فكلُّ النصوص تحتوي على خطابات، غير أنَّ الخطبة تتضمَّن خطاباً لكنها تختصُّ بنمطٍ محدَّد منه، لا يتعدَّاه إلى ما سواه من أنواع الخطابات المضمَّنة في النصوص.

فالعلاقة بين الخطاب بالمفهوم الألسنيِّ الحديث، والخطبة بوصفها أنموذجاً كلاميّاً، قائمّة على نوعية النصِّ، ونوعية المرسل إليه. ودراسة التلقي في نصِّ الخطبة لا يمكن عزله عن مفهومه التواصليِّ الحقيقيِّ، والخطاب في الخطبة- إضافة إلى معناه اللغوي اللساني- يحمل بعداً شفاهيّاً لا يمكن إغفاله في الدراسة اللسانيَّة. وفي نظرة سيميائية للحالة الخطابيَّة في الأدب العربيِّ القديم نجد أنَّ الخطبة كانت تفترض شروطاً لقيامها، منها: مكان الخطبة ويحتفي بكون الخطيب (المرسل) يقف على مسافة من الجمهور (المرسل إليه أو المتلقي)، ويعتلي منصة، مما يعني دلالياً أنه في موقعٍ بعيد عنهم ومتعالٍ عليهم في آن، وأنَّ الخطبة كانت مرتبطة دوماً بالجمهور (وقف فلان وخطب بالناس)، فالسماع في الخطبة أقوى دلالة على التلقِّي من القراءة، والسامع (المتلقي، أو جمهور السامعين أو المتلقين للخطبة)، (بوصفه مصطلحاً شاملاً تتضوي تحته أنماط التلقي الشفاهية أو السماعية فضلاً عن القرائية)[5].

من هنا تغدو الثلاثية الألسنية (مرسِل – رسالة– مرسَل إليه) لا تقوم على التلقِّي المجتزأ، بوصف الجمهور مستقلّاً زمانيّاً ومكانيّاً عن الخطيب (المرسِل)، إنما يعد الزمان وحدة دالَّة على العصر الذي ينتمي إليه كلٌّ منهما، والمكان كذلك، ويبقى مضمون الرسالة في الخطبة منوطاً بالخطيب، فهو يحمِّله - إضافة إلى اللغة- شحنات الانفعال صعوداً أو هبوطاً حسب الحال والمقام، والبعد الشفاهيُّ في الخطبة يسمح بقيام تفاعل مباشر مع المرسَل إليه، وهذا التواصل أو التفاعل هو ما يعبَّر عنه لسانيّاً بالتلقِّي.

[1]- ينظر:د. مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، مرجع سابق، ص26.
[2]-ينظر: إلياس أنطون إلياس. قاموس إلياس العصري، دار الجيل، بيروت، 1972، ص191.
[3] - ابن منظور. لسان العرب، مادة خطب.
[4] - محمد أبو زهرة. الخطابة "أصولها، تاريخها في أزهى عصورها عند العرب، مطبعة العلوم، مصر، ط 1، 1934، ص12.
[5]-بشرى موسى صالح، نظرية التلقي، مرجع سابق، ص59.

الخطبة وكسر أفق التوقع:

حدَّت البلاغة العربية الشعر بحدودٍ صارمة، والأمر ذاته مع باقي أنواع الفنون التي شاعت في العصر القديم، وكما شدَّد البلغاء في الأدب على جودة الاستهلال وبراعة المطلع في الشعر فعلوا الأمر نفسه في الخطبة التي استوجبت تحديداً للبدايات، **فبدايات الخطب مشروطة بالبسملة** ، والحمد والشكر لله تعالى على نعمه وأفضاله، أو تضمين البداية بعضاً من آي الذكر الحكيم، وبهذا تصبح مستهلات الخطب تكاد تكون على نمط واحد من الرتابة النصية يجعل حدودها معروفة لدى متلقيها. وإنَّ الإخلال بشروط الاستهلال هذه قد لا يجعل منها كسراً لأفق التوقُّع في العرف الأدبي واللغوي واللساني، إنما يمكن القول إنَّ هذا الإخلال قد ينسحب، قياساً للعصر والبيئة وطبيعة الخطبة، ليعدَّ خروجاً على الدين والأخلاق والأعراف بوجهٍ عام.

فإذا سلَّمنا بأن الخطابة في اللغة مصدر كالخطاب، وتعني توجيه الكلام نحو الغير للإفهام، وفي اصطلاح الحكماء مجموع قوانين يقتدر بها على الإقناع الممكن [1] في أيِّ موضوع يراد، والإقناع حمل السامع على التسليم بصحة المقول وصواب الفعل أو الترك [2]، فيجب التسليم أيضاً بضرورة التزام الخطيب بقوانين الخطابة وشروطها وأصولها كي تصبح صالحة للإقناع، وإنَّ من أصول الخطابة كما حُدَّت في البلاغة **الإيجاد والتنسيق والتعبير** ، والأول هو إعمال الفكر في استنباط الوسائل الجديرة بإقناع السامع، والوسائل والأدلة، ولا بدَّ مع الأدلة من توافر الآداب الخطابيَّة، والعلم بالأهواء والميول النفسانية، وذلك أنَّ مقصود الخطيب من فكرة الإيجاد، **أولاً:** إنارة العقول وتنبيه الأذهان وحملها على الإقناع، ولا يتم ذلك إلا بالأدلَّة. **ثانياً:** التأثير في الأرواح وجذب القلوب، وذلك يكون بتوافر الآداب في الخطيب. **ثالثاً:** استمالة النفوس إلى ما يطلب منها بإثارة عواطفها، وذلك يكون بمعرفة الأهواء والغرائز وطرق تهييجها وتسكينها [3]. وعن التنسيق فهو في العربية التنظيم والترتيب، وفي الاصطلاح تنظيم معاني الخطبة وسياق أجزائها وذكر أدلتها، وهو من أعظم أركان البلاغة ووسائل التأثير، فإنه بمنزلة تنظيم صفوف الجند، فكما لا نصرة لجيشٍ لا يراعى فيه حسن النظام، كذلك لا قوة للخطبة ولا أثر لها إذا لم تُرتَّب ترتيباً حكيماً، بصورة تكون فيها أبين غرضاً وأحسن في النفوس وقعاً[4].

الجانب التطبيقي:

يُفترض في هذا الجانب أنْ يجيب عن مجموعة من التساؤلات، وهي: كيف نقرأ نصاً لغوياً في إطار التوقع وكسر أفق التوقُّع؟ وما مستويات التلقي ودلالاتها من منظور حداثي، من أجل التقريب بين المصطلحات المعاصرة وما يشف عنها من مفاهيم تقترب إلى حد ما من دلالاتها القديمة؟ وكيف تتم مقاربة مستويات التلقي من الخاص إلى العام وبالعكس؟ وما أفق الانتظار الجماعي؛ المباشر القائم على كسر التوقع المباشر في أفق السامع، والبعيد؛ أي القارئ الحديث الذي يباشر نص الخطبة مصحوباً بتسميتها **(البتراء)**، وما الذي يمكن أنْ تشكله هذه التسمية من عبءٍ قرائي، وتعامل مع المصطلحات النقدية البلاغية القديمة، واللسانية الحديثة؟ مِنْ بعدُ كيف نقرأ نص الخطاب لغويّاً، وكيف نحدِّد الدلالة، وكيف نتلقى نصاً خطابياً لم ينجز لزمن التلقي الراهن، وكيف نقرأ خطبة زياد بغير الطريقة التي قرئت بها قبل ألف عام؟، وكيف يمكن رصد البعد المعرفي من خلال الدالات الكلامية، وما القيمة الحجاجية، والقيمة التداولية من منظور التطبيق لا التنظير؟، وكيف تتم معرفة قدرة الخطيب (المرسل) على تقريب الأشياء وإبعادها وتغريبها عبر

[1] -ينظر: أرسطو طاليس. الخطابة، تحقيق عبد الرحمن بدوي، دار القلم، بيروت، لبنان، د.ط، 1979، ص9.
[2]- الشيخ علي محفوظ، فن الخطابة وإعداد الخطيب، دار النصر للطباعة الإسلامية، مصر، د.ط، د.ت، ص13.
[3]- ينظر: السابق، ص33.
[4]- السابق، ص51.

الأفعال الكلامية؟، هذه التساؤلات التطبيقية تحدد الآلية التي يجب على الباحث اتباعها في التحليل التداولي ضمن إطار كسر أفق التوقُّع.

بداية، وقبل الدخول في العملية التحليلية لفهم النص وقراءته (لا نبدأ من فراغ، بل نبدأ ـ كما في فهم الوجود ـ من معرفة أوليَّة عن النص ونوعه... ومن جانب آخر فنحن لا نلتقي بالنص خارج إطار الزمان والمكان، بل نلتقي به في ظروف محدَّدة، نحن لا نلتقي النص بانفتاحٍ صامت، ولكننا نلتقي به متسائلين. مثل هذه الأسئلة تمثل الأساس الوجودي لفهم النص، ومن ثم لتفسيره، تماما)[1]؛ وهذا يقارب من حيث الآليَّة أحد المفاهيم التداولية في متضمنات القول وهو الافتراض المسبق، ففي كل تواصل لساني ينطلق الشركاء من معطيات وافتراضات معترف بها ومتفق عليها فيما بينهم، وتشكل هذه الافتراضات الخلفية التواصلية الضرورية لإنجاح عملية التواصل، وهي محتواة ضمن السياق والبنى التركيبية العامة[2].

خطبة زياد بالبصرة وتسمى (البتراء): قدم **زياد** البصرة والياً **لمعاوية بن أبي سفيان** ، وضم إليه خراسان وسجستان، والفسق بالبصرة كثير فاشٍ ظاهر، فخطب خطبة بتراء لم يحمد الله فيها ولم يصلِّ على النبي، وهذا **نصُّ الخطبة:**

« أمَّا بَعْدُ فَإنَّ الجهَالَةَ الجهْلَاءَ، والضلالَةَ العَمْيَاءَ، والغَيَّ المُوْفِيَ بِأَهْلِهِ على النَّار، مَا فِيْهِ سُفَهَاؤُكُم وَيَشْتَمِلُ عَلَيْهِ حلمَاؤُكُم، مِنَ الأُمُورِ العِظَامِ يَنْبتُ فِيْهَا الصغِيْرُ، ولا يَنْحَاشُ عَنْهَا الكَبِيْرُ، كَأَنَّكُم لَمْ تَقْرَؤُوا كِتَابَ الله، وَلَمْ تَسْمَعُوا مَا أَعَدَّ اللهُ مِنَ الثوَابِ الكَرِيمِ لِأَهْلِ طَاعَتِهِ، والعَذَابِ الأَلِيْمِ لِأَهْلِ مَعْصِيَتِهِ، في الزَّمَنِ السَّرْمَدِ الذِي لا يَزُوْلُ، أَتَكُوْنُوْنَ كَمَنْ طَرَفَتْ عَيْنَهُ الدُّنْيَا، وَسَدَّتْ مَسَامِعَهُ الشَّهَوَاتُ، واختَارَ الفَانِيَةَ عَلَى البَاقِيَة، ولا تَذْكُرُوْنَ أَنَّكُم أَحْدَثْتُم فِي الإِسْلَامِ الحَدثَ الذي لم تسبقوا إليه: مِنْ تَرْكِكُم الضعِيْفَ يُقْهَرُ وَيُؤْخَذُ مَالُهُ، وَهَذِهِ المَوَاخِيْرَ المَنْصُوْبَةَ، والضَّعيفةَ المَسْلُوبةَ في النهَارِ المُبْصِرِ، والعددُ غيرُ قليلٍ. أَلَمْ تَكُنْ منكم نُهَاةٌ تمْنَعُ الغواةَ عَنْ دَلَجِ الليلِ وغارةِ النهارِ؟! قَرَّبْتُم القَرابةَ وباعَدْتُم الدِّين، تَعتَذِرُون بغيرِ العُذْرِ، وتَغُضُّونَ علَى المُخْتَلِس. أَلَيْسَ كلُّ امرِئٍ مِنْكُم يذبُّ عَنْ سَفِيهِه، صنع مَنْ لَا يَخَافُ عَاقِبَةً وَلَا يَرْجُو مَعَاداً. مَا أَنْتُم بِالحُلَمَاء، وَقَدْ اتَّبَعْتُم السُّفَهَاءَ، فَلَمْ يَزَلْ بِكُم مَا تَرَوْنَ مِنْ قِيَامِكُم دُوْنَهُم حتَّى انْتَهَكُوا حُرُمَ الإِسْلَام، ثمَّ أَطْرَقُوا وَرَاءَكُم كُنُوساً فِي مَكَانِس الرِّيَبِ. حَرَامٌ عَلَيَّ الطعامُ والشرابُ حتى أُسَوِّيهَا بِالأَرْضِ هَدْماً وإِحْرَاقاً. إِنِّي رَأَيْتُ آخِرَ هَذَا الأَمْرِ لَا يَصْلُح إلَّا بِمَا صَلُحَ بِهِ أَوَّلُهُ: لِيْنٌ فِي غَيرِ ضَعْفٍ، وَشِدَّةٌ فِي غَيرِ عُنْفٍ. وَإِنِّي أُقْسِمُ بِالله لَآخُذَنَّ الوَلِيَّ بِالوَلِيِّ، وَالمُقِيمَ بالظاعِنِ، وَالمُقْبِلَ بِالمُدْبِرِ، والمُطِيعَ بِالعَاصِي، وَالصحِيحَ مِنْكُم في نَفْسِه بالسَّقِيمِ، حتَّى يَلْقَى الرَّجُلُ مِنْكُم أَخَاهُ فَيَقُولُ: انجُ سَعْدُ فَقَدْ هَلَكَ سُعَيْدٌ، أَوْ تَسْتَقِيمَ لِي قَنَاتُكُم. إِنَّ كذْبَةَ المِنْبَرِ بِلِقَاءٍ مَشْهُوْرَةٌ، فَإِذَا تَعَلَّقْتُم عَلَيَّ بِكِذْبَةٍ فَقَدْ حَلَّتْ لَكُمْ مَعْصِيَتِي، وَإِذَا سَمِعْتُمُوهَا مِنِّي فَاغْتَمِزُوها فِيَّ وَاعْلَمُوا أَنَّ عِنْدِي أَمْثَالَهَا. مَنْ نُقِبَ مِنْكُم عَلَيهِ فَأَنَا ضَامِنٌ لِمَا ذَهَبَ مِنْهُ، فَإِيَّايَ وَدلَجَ الليلِ، فَإِنِّي لا أُوتَى بِمدلجٍ إِلَّا سَفَكْتُ دَمَهُ، وَقَدْ أَجَّلْتُكُم في ذَلِكَ بِمِقْدَارِ مَا يَأْتِي الخَبَرُ الكُوفَةَ وَيَرْجِعُ إِلَيْكُم. وَإِيَّايَ وَدَعْوَةَ الجاهِلِيَّة؛ فَإِنِّي لَا آخُذُ دَاعِياً بِها إِلَّا قَطَعْتُ لِسَانَهُ. وَقَدْ أَحْدَثْتُم أَحْدَاثاً لَمْ تَكُنْ، وَقَدْ أَحْدَثْنَا لِكُلِّ ذَنْبٍ عُقُوبَةً: فَمَنْ غَرَّقَ قَوْماً غَرَّقْنَاهُ، وَمَنْ أَحْرَقَ قَوْماً أَحْرَقْنَاهُ، وَمَنْ نَقَبَ بَيْتاً نَقَبْنَا عَنْ قَلْبِهِ، وَمَنْ نَبَشَ قَبْراً دَفَنَّاهُ فِيهِ حَيّاً. فَكُفُّوا عَنِّي أَيْدِيَكُم وَأَلْسِنَتِكُم، أَكْفِفْ عَنْكُم يَدِي وَلِسَانِي. وَلَا تَظْهَرُ عَلَى أَحَدٍ مِنْكُم رَيْبَةٌ بِخِلافِ مَا عَلِيهِ عَامَّتُكُم إِلَّا ضَرَبْتُ عُنُقَهُ. وَقَدْ كَانَتْ بَيْنِي وَبَيْنَ أَقْوَامٍ إِحَنٌ فَجَعَلْتُ ذَلِكَ دَبْرَ أُذُنِي وَتَحْتَ قَدَمِي، فَمَن كَانَ مِنْكُم مُحْسِناً فَلْيَزْدَدْ إِحْسَاناً، وَمَنْ كَانَ مِنْكُم مُسِيْئاً فَلْيَنْزِع عن إساءته وَإِنِّي وَالله لَوْ عَلِمْتُ أَنَّ أَحَدَكُم قَد قَتَلَهُ السِّلُّ مِنْ بُغْضِي لَمْ أَكْشِفْ لَهُ

[1]-نصر حامد أبو زيد. إشكاليات القراءة وآليات التأويل، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط6، 2001، ص33.
[2]- ينظر، د. مسعود صحراوي. التداولية عند العلماء العرب، دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 2005، ص30-31.

قِنَاعاً، ولَمْ أَهْتِك لَهُ سِتْراً، حتَّى يُبْدِيَ لِيْ صَفْحَتَهُ، فإِذَا فَعَلَ لَمْ أُنَاظِرْهُ. فَاسْتَأْنِفُوا أُمُوْرَكُم، وَأُرْعُوا عَلَى أَنْفُسِكُم، فَرُبَّ مَسُوءٍ بِقُدُوْمِنَا سَنَسُرُّهُ، وَمَسْرُورٍ بِقُدُوْمِنَا سَنَسُوْؤُه.

أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّا أَصْبَحْنَا لَكُم سَادة، وَعَنْكُم ذَادَةً، نَسُوسُكُم بِسُلْطَانِ اللهِ الذِي أَعْطَانَا، وَنَذُوْدُ عَنْكُم بِفَيءِ اللهِ الذِي خَوَّلَنَا، فَلَنَا عَلَيْكُم السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ فِيْمَا أَحْبَبْنَا، وَلَكُم عَلَيْنَا العَدْلُ والإنصافُ فِيمَا وُلِّيْنَا. فَاسْتَوْجِبُوا عَدْلَنَا وَفَيْئَنَا بِمُنَاصَحَتِكُم لَنَا، وَاعْلَمُوا أَنِّي مَهْمَا قَصَّرْتُ عَنْهُ فلن أُقَصِّرَ عَنْ ثَلَاثٍ: لَسْتُ مُحْتَجِباً عَنْ طَالِبِ حَاجَةٍ مِنْكُم وَلَوْ أَتَانِي طَارِقاً بليلٍ، وَلَا حَابِساً عَطَاءً وَلَا رِزْقاً عَنْ إِبَّانِهِ، وَلَا مُجَمِّراً لَكُم بَعْثاً. فَادْعُوا اللهَ بِالصَّلَاحِ لِأَئِمَّتِكُم؛ فَإِنَّهُم سَاسَتُكُم المُؤَدِّبُونَ لَكُم، وَكَهْفُكُم الذِي إِلَيْهِ تَأْوُونَ، وَمَتَى يَصْلُحُوا تَصْلُحُوا، وَلَا تُشْرِبُوا قُلُوبَكُم بُغْضَهُم فَيَشْتَدَّ لِذَلِكَ غَيْظُكُم، وَيَطُولَ لَهُ حُزْنُكُم، وَلَا تُدْرِكُوا بِهِ حَاجَتَكُم، مَع أَنَّهُ لَو استُجِيْبَ لَكُم فِيْهِم لَكَانَ شرّاً لَكُم.أَسْأَلُ اللهَ أَنْ يُعِيْنَ كُلّاً عَلَى كُلٍّ. وَإِذَا رَأَيْتُمُونِي أنفذُ فِيْكُم الأَمْرَ فَأَنْفِذُوهَ عَلَى أَذْلَالِه، وَايمُ اللهِ إِنَّ لِي فِيكُم لَصَرْعَى كَثِيْرَة، فَلْيَحْذَرْ كُلَّ امْرِئٍ مِنْكُم أَنْ يَكُوْنَ مِنْ صَرْعَايِ»[1].

يفتتح الخطيب «المرسل» نصه بمقدمة تكسر أفق التوقُّع الذي درج عليه العرب في افتتاحيات الخطب [2]، واستهل بـ **أمّا بعد**، و«**أمّا**» في العربية يستفتح بها الكلام، وتفيد تنبيه السامع على ما يلقى إليه من كلام وتعطيه فضل توكيد[3]، و(أصلها مهما يكن من شيء بعد البسملة والحمدلة وما معها،... وهذه الكلمة يؤتى بها للانتقال من أسلوب إلى آخر، ولا يجوز الإتيان بها في أوَّل الكلام، ويستحبُّ الإتيان بها في الخطب والمكاتبات اقتداء برسول الله "ص") [4]، ويبدو أنَّ هذا الافتتاح **بأمّا بعد** قد نبَّه السامع على ما قبلها وما بعدها، ما قبلها؛ أيْ **كسر قاعدة افتتاحيات الخطب**، وما بعدها؛ أيْ أنَّ ما هو آت من نصٍّ كلاميٍّ واجب السماع والانتباه، وفي هذه المقدمة لم يذكر المناسبة ولا الغرض منها، إنما باشر على الفور في إظهار العيوب والنواقص، مستعملاً خطاباً ولغةً شديدي اللهجة، وإنَّ أَخْذَهُ هذا المنحى الاستهلالي بكمٍّ غير قليلٍ من العنف اللغويِّ، يجعل القارئ أو المتلقي يشعر بأن الخطيب (المرسل) غير معنيٍّ بتفاعل السامع معه، وأنه يريد منه نوعاً محدداً من التواصل، ومن الاستجابات تبين ماهيتها لغة الخطاب في نص الخطبة بأكمله. ونبدأ معه الجملة الأولى التي بدأ بها كلامه:

« إِنَّ الجَّهَالَةَ الجَّهْلَاءَ، وَالضَّلَالَةَ العَمْيَاءَ، ... الذِي لَا يَزُوْل»

تبدو المفردات التي تفصل بين أداتي الحجاج (إنَّ، ما) في مسارها التأويلي جملة من الدالات اللسانية تنطوي على مؤشِّر النتيجة، فالنتيجة سابقة في فعل القول (بوصفه فعلاً مستمراً وليس دالاً على ذاته)، وقد تكون سابقة في الحصول، إنما تقديم حضورها التسلسلي، وإبراز نتائجها في الخطاب اللاحق (ما يأتي عليه سفهاؤكم...)، بذلك تكون الأدلَّة اللسانية أو اللغوية المنطقية التي يقدِّمها الخطيب (المرسل) بعد (ما)، تفسر حضور النتيجة قبل حضور الأسباب في الفعل اللغوي، وطغيان حضور النتيجة المتمثلة بالدالات اللغوية (الجهالة، الضلالة، الغيّ)، بوصفها مفردات حجاجية تضمر قصديَّة حضورها القائل بتفشِّي ظهورها واقعياً، لذلك كان من حقها أنْ تقدَّم في الخطاب بغاية تأسيس جملة من الشروط أو الوضع السياقي الذي يمهِّد له الخطيب (المرسِل)، لينقل الجمهور (المرسَل إليه) من قاعدة بياناتٍ

[1]- عمرو بن الجاحظ. البيان والتبيين، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة، الطبعة السابعة، 1998، ص61.

[2]- ينظر: الشيخ علي محفوظ. فن الخطابة وإعداد الخطيب،(المطلب الأول: في المقدمة، المبحث الأول: في حسن الافتتاح)، ص 52.

[3] - د.بدوي طبانة. معجم البلاغة العربية، دار المنارة للنشر والتوزيع، جدة السعودية، ط3، 1408ه- 1988م، ص46.

[4]- ينظر: الشيخ سليمان بن محمد بن عمر البجيرمي الشافعي. البجيرمي على الخطيب، وهو حاشيته المسماة "تحفة الحبيب على شرح الخطيب" المعروف ب"الإقناع في حل ألفاظ أبي شجاع" للشيخ محمد بن أحمد الشربيني القاهري الشافعي المعروف بالخطيب الشربيني المتوفى سنة 977ه، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، ط1، 1996، الجزء الأول، ص16-62.

دلاليَّة سبق له أنْ تواضع عليها عرفيّاً ولسانيّاً تداوليّاً، ويضعهم في سياقٍ مباغتٍ آخر يكسر به نمط حضور اللغة السائدة، والأعراف السائدة؛ إذْ ليس من القواعد اللغوية في شيء أنْ يذهب المرسِل بالمرسَل إليه من حالة إلى أخرى من غير أنْ يكون السياق النفسي والذهني مهيّأً لذلك؛ ومن وجهة نظر تداولية تبدو هذه المفردات أو الدوال حاملة معناها الحقيقي النحوي، المرتبط بالعالم الواقعي، ومعناها المجازي القائل بأن تواردها هكذا في متوالية نصيَّة مُفتتحة بحرف التوكيد (إنّ) تشير إلى تواتر حصولها وتأكيده وكثرته.

ثم يتابع زياد خطابه للناس، مستمراً في سوق حججه وبراهينه على صواب حديثه، وضلالة الفعل الذي يقوم به جمهور السامعين، ويستنكر عليهم فعلهم؛ إذْ يستعرض لهم في خطاب يحيلهم فيه إلى القرآن الكريم ليستنكر عليهم خروجهم على الطاعة، فقوله: «كَأَنَّكُم لَمْ تَقْرَؤُوا كِتَابَ الله، وَلَمْ تَسْمَعُوا مَا أَعَدَّ اللهُ مِنَ الثوَابِ الكَرِيمِ لِأَهْلِ طَاعَتِهِ، والعَذَابِ الأَلِيْمِ لِأَهْلِ مَعْصِيَتِهِ، في الزَّمَنِ السَّرْمَدِ الذِي لا يَزُوْلُ»، هذا الخطاب لا يشبه في محتواه الكلامي، والنبرة الانفعالية المصاحبة له ما سبق للمرسل أنْ تقدَّم به للناس بادئ خطابه.

يعني الحِجاج (الاستدلال) في مفهومه اللساني تقديم الحجج والأدلة المؤدية إلى نتيجة معينة، وبمعنى آخر هو(حمل المتلقي على الاقتناع بما نعرضه عليه أو الزيادة في حجم هذا الاقتناع) [1]، ويتمثل في إنجاز التسلسلات الاستنتاجية داخل الخطاب، وبعبارة أخرى، يتمثل في إنجاز متواليات من الأقوال بعضها بمنزلة الحجج اللغوية، وبعضها الآخر بمنزلة النتائج التي تستنتج منها؛ بمعنى أنَّ تأويل الأقوال يتم من خلال عمليات استدلالية لها مقدمات هي الصيغة المنطقية للقول إضافة إلى معلومات أخرى، وتشكل هذه المعلومات الأخرى السياق؛ وعليه فتأويل الأقوال لا ينطبق على الصيغة المنطقية للقول وحدها، بل يعتمد عليها وعلى معلومات أخرى يقدمها السياق، ويشكل المجموع مقدمات العملية الاستدلالية [2]، ويمكن القول إنَّ الخطبة بأكملها تقوم على عرضٍ للحُجَّة، وإثباتٍ للنتيجة، إذْ نجد أنَّ أفعال الكلام جميعها من ماضٍ ومضارعٍ وأمرٍ تندرج في إطار الفعل الحجاجي، أيْ أنَّه يرد في جملةٍ متواليات تقود إلى نتائج محدَّدة ثابتة في ذهن الخطيب (المرسِل)، لننظر في قوله: «أَتَكُوْنُوْنَ كَمَنْ طَرَفَتْ عَيْنَهُ الدُّنْيَا، وَسَدَّتْ مَسَامِعَهُ الشَّهَوَاتُ، واختَارَ الفَانِيَةَ عَلَى البَاقِيَة، ولا تَذْكُرُوْنَ أَنَّكُم أَحْدَثْتُم فِي الإِسْلَامِ الحَدثَ الذي لم تسبقوا إليه: مِنْ تَرْكِكُم الضعِيْفَ يُقْهَرُ وَيُؤْخَذُ مَالُهُ ...، أَلَمْ تَكُنْ منكم نُهَاةٌ تمْنَعُ الغواةَ عَنْ دَلَجِ الليلِ وغارةِ النهارِ؟! قَرَّبْتُم القَرابةَ وباعَدْتُم الدِّين، تَعتَذِرُون بغيرِ العُذْرِ، وتَغْضُّونَ علَى المُخْتَلِس. أَلَيْسَ كلُّ امرِئٍ مِنْكُم يذبُّ عَنْ سَفِيهِه،... مَا أَنْتُم بِالحُلَمَاء، وَقَدْ اتَّبَعْتُم السُّفَهَاءَ، فَلَمْ يَزَلْ بِكُم مَا تَرَوْنَ مِنْ قِيَامِكُم دُوْنَهُم حتَّى انْتَهَكُوا حُرُمَ الإِسْلَام، ثمَّ أَطْرَقُوا وَرَاءَكُم كُنُوساً فِي مَكَانِس الرِّيَبِ»، يدلُّ الفعل الكلامي السائد في النص السابق على الزمن الماضي، مما يعني أنَّ استنباط الحجة الكلامية من حدثٍ واقعيٍّ تمَّ في الزمن الماضي، وتنسحب دلالة المضارعة في النص أيضاً على الزمن الماضي؛ فالفعل (أتكونون) في القيمة النحوية يدلُّ على الزمن المستقبل أو على الحاضر، فيما هو في القيمة التداولية دالٌّ على الماضي، وهذه الصيغة الكلامية- وإنْ لم تكن دالة حقيقة على زمنها - فيها من الدلالة ما يشير إلى أنَّ استنكار حضورها في الحاضر قائم على حقيقة حصولها في الزمن الماضي، تدلُّنا على هذا التفسير أداة التشبيه (الكاف) في (كمن طرفت...)، أي إنَّ مثالها في العالم الخارجي قائم ومتعيّن، وهذه الإحالة إلى العالم الواقعي إحدى المزايا التي تمنحها التداولية لتفسير الضمائر، وتعيين المرجع في الواقع الخارجي، وهذا ما يعزو للتداولية بعض المزايا عن اللسانيات البنيوية، كالاتصال

[1] -ينظر: سامية الدريدي. الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة بنياته وأساليبه، عالم الكتب الحديث، إربد ، عمان، ط1، 2001، ص21.

[2]- ينظر: آن روبول؛ جاك موشلار. التداولية اليوم، علم جديد في التواصل، ترجمة: د. سيف الدين دغفوس و د. محمد الشيباني، مراجعة: د. لطيف زيتوني، المنظمة العربية للترجمة، دار الطليعة للنشر، بيروت، ط1، 2003، ص77-78.

المباشر، ومباشرة العالم الخارجي، وتأسس الاستدلالات التداولية على أعراف اجتماعية [1]، ونؤول هذه الدلالة بموجب استدلالٍ برهاني يقوم على إثبات الحجة في سياق الفعل الكلامي، وتلك قيمة أخرى تقدمها التداولية في دراسة الوجوه الاستدلالية للتواصل الشفوي، فتقيم روابط وشيجة بين اللغة والإدراك[2].

أمَّا تأثير أفعال الكلام بصيغتها النحوية (الماضي والمضارع) في التلقي، فنستدِلُّ عليه لغوياً فقط، من غير أنْ يكون حضورها التأثيري معروفاً أو مستدَلاً عليه منطقياً، إذْ يقدمه الخطيب(المرسل) بصورة نتيجة مستقاةٍ من فعل التلقي الحقيقي القائم على الأرض « أَلَيْسَ كلُّ امرِئٍ مِنْكُم يذبُّ عَنْ سَفِيهِه،... مَا أَنْتُم بِالحُلَمَاء، وَقَدْ اتَّبَعْتُم السُّفَهَاءَ»، وإنَّ هذه الحجج الكلامية التي عرضها المرسل في سياق خطبته أسَّس بموجبها نتيجة أخرى قامت عليها: « فَلَمْ يَزَلْ بِكُم مَا تَرَوْنَ مِنْ قِيَامِكُم دُوْنَهُم حتَّى انْتَهَكُوا حُرُمَ الإِسْلَام، ثمَّ أَطْرَقُوا وَرَاءَكُم كُنُوساً فِي مَكَانِس الرِّيَبِ...»، ثمَّ يأتي ببلاغ لغوي آخر **يكسر به أفق التوقع** المقترن بهذا النص حين يقول: « حَرَامٌ عَلَيَّ الطعامُ والشرابُ حَتَّى أُسَوِّيْهَا بِالأَرْضِ هَدْماً وَإِحْرَاقاً».

ثم يتابع الخطيب (المرسِل) خطابه، ويفتتح نصّاً لغويّاً آخر، وكأنه يتقدم بمجموعةٍ من الحجج والأدلة: «إِنِّي رَأَيْتُ آخِرَ هَذَا الأَمْرِ لَا يَصْلُح إِلَّا بِمَا صَلُحَ بِهِ أَوَّلُهُ: لِيْنٌ فِي غَيرِ ضَعْفٍ، وَشِدَّةٌ فِي غَيرِ عُنْفٍ»، وهذا المنطق اللغوي الجديد يدخل الخطاب فيه مرحلة جديدة من التواتر الانفعالي المصاحب للأفعال اللغوية، فهذا الخطاب من حيث بنيته اللغوية، يحمل صيغة عنف أقل مما سبقها، وعلى وجه التحديد قوله:« لِيْنٌ فِي غَيرِ ضَعْفٍ، وَشِدَّةٌ فِي غَيرِ عُنْفٍ»، وإنَّ في استخدام الخطيب هذه الصيغ بوصفها دالات لا تحمل عنفاً لغوياً أو دلاليّاً، ما يدلّ على أنه يهيئ جمهور السامعين ليضعهم في سياق أقلَّ حدَّة مما سبقه. غير أنَّه عاد **وكسر أفق التوقُّع** الذي هيّأ جمهوره لسماعه في قوله: « وَإِنِّي أُقْسِمُ بِالله لَآخُذَنَّ الوَلِيَّ بِالوَلِيِّ، وَالمُقِيمَ بالظاعِنِ، وَالمُقْبِلَ بِالمُدْبِرِ، والمُطِيعَ بِالعَاصِي، وَالصحِيحَ مِنْكُم في نَفْسِه بالسَّقِيمِ، حتَّى يَلْقَى الرَّجُلُ مِنْكُم أَخَاهُ فَيَقُولُ: انجُ سَعْدُ فَقَدْ هَلَكَ سُعَيْدٌ، أَوْ تَسْتَقِيمَ لِي قَنَاتُكُم»؛ عند قراءة الجملة السابقة لهذا النصِّ بدالاتها ودلالاتها، من غير الممكن أنْ نتصور أنَّ الخطاب اللاحق لها سيكون على هذا القدر من التأثير العكسي، إذْ باشر الخطيب (المرسل) كسر أفق التوقع بالقسَم « وَإِنِّي أُقْسِمُ بالله»، مما لا يدع مجالاً للشك في قطعيَّة الدلالة التي يرد بها القسم، ولا فيما هو مُقْسَمٌ عليه، ولا شفاعة فيما يسوقه من حجَّة تالية: « لَآخُذَنَّ الوَلِيَّ بِالوَلِيِّ،...»؛ ففعل الكلام الذي استعمله مضافاً إليه نون التوكيد الثقيلة، ومسبوقاً بالقسم يدلُّ على أنَّ الكلام في ذاته مطابق للفعل، ثم يضع المتناقضات اللغوية في سياق نصيٍّ متمم لهذه الدلالة، (المقيم والظاعن، والمقبل والمدبر، والمطيع والعاصي، والصحيح والسقيم) بدلالاتها المتضادة ترد عبر ثنائيات لا تأخذ شكل التضاد اللغوي ولا معناه، وإنَّ الخطيب (المرسِل) إذْ يضعها في هذا السياق بشكل تبدو منه مترادفات لا متضادات، يدلُّ دلالة قاطعة على أنْ لا مفرَّ من عقابه، أو هذا ما يمكن أنْ يستنتج أنه استقرَّ في أفق التلقي الذي صاحب هذه البنية الترادفيَّة. ويفترض المرسِل عبر حديثه هذا استجابة محددة من جمهور السامعين، عبر آليَّة حددها في خطابه لإمكانات التلقي حين يقول: «حتَّى يَلْقَى الرَّجُلُ مِنْكُم أَخَاهُ فَيَقُولُ: انجُ سَعْدُ فَقَدْ هَلَكَ سُعَيْدٌ»، وهو في انتقائه لمفردات النص الذي يفترضه المرسل تلقيّاً فعليّاً، يضع جلَّ مؤثرات الخطاب ما بين مفردتي "انج – هلك". وإذ يضع المتلقي هاتين المفردتين بين طرفي مقابلة "النجاة – الهلاك"، يكون فعل النجاة قائماً بينهما، ومبنياً على "القصديَّة" ذات الدلالة الطبيعية وغير الطبيعية للغة التي استخدمها المتكلم. والقصدية في هذا النص تبدو متَّفقة مع ما يذهب إليه **روبول** و**موشلار** من أنَّ « الدلالة غير الطبيعية تقوم على

[1]- ينظر: د. مسعود صحراوي. التداولية عند العلماء العرب، ص29.
[2]- ينظر: المرجع السابق، ص28-29.

مقصد مزدوج، مقصد تبليغ المحتوى، ومقصد تحقيق هذا المقصد» [1]، فتبليغ المحتوى فعل قام به المرسل، وتحقيق هذا المقصد فعل يضطلع به المرسَل إليه أو جمهور السامعين، ومقصد المرسِل يتحدد في الجملة التي يختتم بها خطابه اللغوي العنيف (أوْ تَسْتَقِيْم لِي قَنَاتُكُم)، ففعل الاستقامة هو التلقي الحقيقي الذي أراد له الخطيب (المرسل) أنْ يتم بموجب خطابه السابق، وهو الاستجابة المتعينة في الواقع الفعلي الذي أراد لها أن تترجم سلوكاً عملياً.

ثم يتابع الخطيب نصَّه وكأنه يفتتح نصاً آخر غير مقترن بما سبقه: « إنَّ كذْبَةَ المِنْبَرِ بِلِقَاءٍ مَشْهُوْرَةٌ، فَإِذَا تَعَلَّقْتُم عَلَيَّ بِكِذْبَةٍ فَقَدْ حَلَّتْ لَكُمْ مَعْصِيَتِي، وَإِذَا سَمِعْتُمُوهَا مِنِّي فَاغْتَمِزُوها فِيَّ وَاعْلَمُوا أنَّ عِنْدِي أَمْثَالَهَا». في مفتتح هذا النص مقصد إخباري يتحدد في جملة **إنَّ كذبةَ المنبَرِ بِلِقَاءٍ مَشْهُورَةٌ** ؛ وهذا يدل على أنَّ (القائل يحمل مخاطبه على معرفة معلومة معينة)[2]، ويكمن المقصد التواصلي في محتوى النص اللاحق لها، والمقصد التواصلي هو(ما يقصد القائل من حمل مخاطبه على معرفة مقصده الإخباري) [3]، فالجملة في مفتتح القول لا تحمل قصد الإخبار عن دلالة فعل الكذب، إنما يتعدَّاها ليحمل بعداً تواصليّاً تحدِّده مفردات مقترنة بالشرط « فَإِذَا تَعَلَّقْتُم عَلَيَّ بِكِذْبَةٍ فَقَدْ حَلَّتْ لَكُمْ مَعْصِيَتِي... وَاعْلَمُوا أنَّ عِنْدِي أَمْثَالَهَا»، ففي هذا الخطاب دلالة مفترضة بأنَّ الكذب فعل قائم في الواقع، لكن ليس بالضرورة أنْ يستمرَّ إلى ما بعد انتهاء خطاب القائل، لأنه مقترن بأداة الشرط إذا، وهي في ذاتها تحمل دلالة النفي، بمعنى أنَّ المرسل يتوقع من جمهوره أنْ تكون استجابتهم الفعلية نفياً لما سبق من دلالة مفترضة؛ أيْ فعل الكذب القائم في الواقع. ومثل هذا الافتراض المسبق للحدث واردٌ في الجملة التالية للخطاب النصي السابق: « مَنْ نُقِبَ مِنْكُم عَلَيهِ فَأَنَا ضَامِنٌ لِمَا ذَهَبَ مِنْهُ، فَإِيَّايَ وَدلَجَ الليلِ، فَإِنِّي لا أُوتَى بِمدلجٍ إِلَّا سَفَكْتُ دَمَهُ... وَإِيَّايَ... فَإِنِّي لَا آخُذُ دَاعِياً بِها إِلَّا قَطَعْتُ لِسَانَهُ»؛ ففعل النقب، ودلج الليل، ودعوى الجاهلية تحمل افتراضاً مسبقا بحقيقة حصولها في الواقع، غير أنَّ المتكلم استعمل في لغته الخطابية أسلوب التحذير "إيَّاي"، والمقصود من هذه المفردة الحذر والتنبيه؛ أيْ احذروا إيَّاي من دلج الليل ودعوى الجاهلية. يضاف إلى ذلك أنَّ الأفعال الكلاميَّة التي سيقت لهذا الغرض تحوي ـ إضافة إلى مقصدها الإخباري ذي الصيغة التحذيرية ـ دلالة قطعية بحصول ما هو متوقع من إيرادها في هذا المثال، أو ناتج منها، يدلنا على هذا التأويل استعمال الخطيب في أفعاله الكلامية صيغة الماضي، فيما هو يقصد من ورائه المستقبل، أو المستقبل المفترض (المحتمل)؛ فقوله: "إلا وَسَفَكْتُ دَمَهُ"، فعل السفك هنا بصيغته الماضية، إلا أنه يحمل بعداً آخر بدلالة قاطعة لاحتمال حصول الفعل في المستقبل، فاستعمال الفعل الماضي بدلالته على المستقبل يدل دلالة مباشرة على أنَّ هذا الفعل في المستقبل، في حال حصوله، فإنَّ تأثيره كامن في عقوبته (سَفْكُ الدم)، تؤكِّد أنَّ الفعل في المستقبل إنْ تمَّ ستصبح عقوبته بصيغة ماضية؛ أيْ قطعية. ومثل هذه الصيغة تنطبق على المثال الآخر: « فَإِنِّي لَا آخُذُ دَاعِياً بِها إِلَّا قَطَعْتُ لِسَانَهُ».

وقد استعمل النص القرآني هذه الصيغة في الدلالة على الجزم بوقوع الفعل غير مرة، من ذلك قوله تعالى: *وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَاكِثُونَ* سورة الزخرف آية (77)، ففعل النداء لم يتمَّ بعد وإنما أخبر عنه، وفعل المكوث كذلك، وفعل القول الذي استعمله الخطاب القرآني (قال) يدل دلالة قاطعة على حصوله في المستقبل؛ ولعلَّ هذه الدلالات اللغوية المحمولة على أفعال الكلام بصيغتها الماضية أو المضارعة، تفيد في توجيه المخاطب نحو أفق توقُّعٍ منوط بهذه الدلالات فتحمله على استدراك الافتراض المسبق، وتحويل مساره إلى ما يناسب طبيعة الخطاب وقصديّة المرسل.

[1]- آن روبول؛ وجاك موشلار. التداولية اليوم، علم جديد في التواصل، مرجع سابق، ص79.
[2]- السابق، ص79.
[3]- السابق، ص79.

ثم يتابع الخطيب (المرسل) كلامه، فيسوق على مستمعيه حجَّة أخرى: « وَقَدْ أَحْدَثْتُم أَحْدَاْثاً لَمْ تَكُنْ مِنْ قَبْلُ، وَقَدْ أَحْدَثْنَا لِكُلِّ ذَنْبٍ عُقُوْبَةً»، وبناءً على محمول البنية النصيَّة، استدلَّ المرسِل على حجته بناء على الوقائع الخارجية المرتبطة بالظروف الزمانية والمكانية والظواهر الاجتماعية، وأسَّس عليها بنية مفرداته اللغوية، فإذا قلنا إنَّ الحجة على جمهور السامعين « أَحْدَثْتُم أَحْدَاْثاً لَمْ تَكُنْ مِنْ قَبْلُ»؛ فالبرهان عليها يمكن أن يستدل عليه من خلال الزمن الذي قدم به زياد إلى البصرة، والظواهر الاجتماعية المنبوذة عرفيّاً وأخلاقيّاً واجتماعيّاً التي كانت سائدة، وقرن رسالته التي أراد إيصالها « وَقَدْ أَحْدَثْنَا لِكُلِّ ذَنْبٍ عُقُوْبَةً»، بمحمولات حجته التي عبارة عن الأحداث التي لم تكن؛ أيْ لم يُسمع بها، أو لم يؤت بمثلها قبلاً، وهذه الأحداث غير ظاهرة في سياق النصِّ الذي قدَّمه، إنما يمكن الاستدلال عليها عبر الافتراض المسبق القائم على دلالات قوله: « فَمَنْ غَرَّقَ قَوْماً غَرَّقْنَاهُ، وَمَنْ أَحْرَقَ قَوْماً أَحْرَقْنَاهُ، وَمَنْ نَقَبَ بَيْتاً نَقَبْنَا عَنْ قَلْبِهِ، وَمَنْ نَبَشَ قَبْراً دَفَنَّاهُ فِيهِ حَيّاً»؛ هذه الافتراضات تقدمها الصيغ اللغوية: (غرَّق قوماً، حرَّق قوماً، نقب بيتاً، نبش قبراً)، فيما يبدو أنَّ هذه الأفعال التي عرضها سابقة الحصول في الواقع؛ إنما حصولها فيما هو قادم مرتبط في بنية اللغة الخطابية التي استعملها المتكلم بنتائج حصولها (غرّقناه، أحرقناه، نقبنا عن قلبه، دفناه فيه حياً)، فالجزاء من جنس من جنس الفعل في فعل الحرق والغرق، غير أننا نجد في عقاب جريمة " نقب بيت ونبش قبر" مبالغة وكسراً لأفق التوقُّع المنوط بالعقوبة، والذي يتعداها إلى كثيرٍ من الاحتمالات التي تبنى على مفهوم العقوبة؛ فإذا كان العقاب من جنس الفعل، فذلك يقتضي أنْ تكون عقوبة الغرق بالغرق، والحرق بالحرق، أما التنقيب عن القلب الذي توعَّد به الخطيب (المرسل)، فإنه يتجاوز سقف التوقُّع المرتبط بجزاء السارق، وكذلك جملة « دَفَنَّاهُ فِيْهِ حَيّاً»؛ فإنها لا تستلزم فعل النبش من حيث الجزاء المفترض أو المتعارف عليه.

وهذه التأويلات مكّنت من استنتاجها خاصية الاستلزام الحواري؛ فـ(جمل اللغات الطبيعية في بعض المقامات تدلُّ على معنى غير محتواها القضوي، فإذا تأملنا الحمولة الدلالية نجدها تدلّ على معنيين أحدهما حرفي، والآخر ناتج أو مستلزم)[1]. أضف إلى ذلك أنَّ لغة التهديد والوعيد التي يتوجه بها الخطيب (المرسل)، قائمة على صيغتين لغويتين (فَعَلَ ـ فَعَلْنا)، وغير خاف دلالة الصيغة الأولى على الفردية، في حين أنَّ الفاعل قد لا يكون فرداً، والصيغة الثانية تتصل بـ **نا** الدالة على الجماعة، ودلالتها إذا كان المقصود بها فرد هي التفخيم والتعظيم، والمتكلم فرد يتكلم بلسان حاله لا بلسان حال الجماعة، وهذه ما يمكن تسميتها في اللغة بالمتعاليات النصية، وهي كثيرة الورود في نص الخطبة؛ ومنها قوله: « فَكُفُّوا عَنِّي أَيْدِيَكُم وَأَلْسِنَتِكُم، أَكْفِفْ عَنْكُم يَدِي وَلِسَانِي. وَلَا تَظْهَرُ عَلَى أَحَدٍ مِنْكُم رَيْبَةٌ بِخِلافِ مَا عَلِيهِ عَامَّتُكُم إِلَّا ضَرَبْتُ عُنُقَهُ». وفاء السببية التي ترد في بداية الجملة تعني دلالياً كَفَّ السبب لكفِّ النتيجة، ويأتي السبب في صيغة فعل الأمر **كُفُّوا**؛ فالدلالة المعنوية المرتبطة بالطلب وجواب الطلب **كُفُّوا— أكفف** يعني اقتران نفي النتيجة بنفي السبب، والاستدلال على نفي السبب يرد عبر المفردات المكملة لنص الخطاب: « فَمَن كَانَ مِنْكُم مُحْسِناً فَلْيَزْدَدْ إِحْسَاناً، وَمَنْ كَانَ مِنْكُم مُسِيْئاً فَلْيَنْزِع عَنْ إِسَاءَتَهُ». إنَّ محمولات الخطاب في هذا النص تشير إلى البرهنة على ما استُدِلَّ به مما هو سابق عليه في فعل الكلام، وإنَّ هذا الطلب بصيغتيه النحوية والدلالية، يوجِّه المتلقي إلى مسار تأويلي يزيل اللبس الحاصل من محمولات الخطاب المتوعد المتهدد، الذي سبق أنْ باشر الخطيب به جمهوره، ويبدو أنه يحمل أثراً انفعاليّاً نفسيّاً أقلّ حدَّة وتوتراً من سابقه، مما يمنح المتلقي فرصة لالتقاط أنفاسه، وإعادة تعيين مدركاته حسب سياق حال الخطاب. وهذه الهَدْأَة الخطابية تكمل مسارها في قول الخطيب: « وَإِنِّي وَاللهِ لَوْ عَلِمْتُ أَنَّ أَحَدَكُم قَد قَتَلَهُ السِّلُّ مِنْ بُغْضِي لَمْ أَكْشِفْ لَهُ قِنَاعاً، وِلَمْ أَهْتِك لَهُ سِتْراً، حتَّى يُبْدِيَ لِيْ صَفْحَتَهُ، فَإِذَا فَعَلَ لَمْ أُنَاظِرْهُ. فَاسْتَأْنِفُوا

[1]- د. مسعود صحراوي. التداولية عند العلماء العرب، مرجع سابق، ص33.

أُمُوْرَكُم، وَأُرْعُوا عَلَى أَنْفُسِكُم...»، وإستراتيجية التأويل في هذا المقام تبنى على تعيين أفق التوقُّع الجديد الذي يسمح به هذا الخطاب، فالجملة البادئة في مستهله، تعطي دلالة محددة مقترنة بنفي الفعل « لَوْ عَلِمْتُ... لَمْ أَكْشِفْ... وِلَمْ أَهْتِك... لَمْ أُنَاظِرْهُ »، وهذه المسافة التوقعية تزداد اتساعاً بالقول « فَاسْتَأْنِفُوا أُمُوْرَكُم، وَأُرْعُوا عَلَى أَنْفُسِكُم »، وكأن مقصد المتكلم من هذا الخطاب غير متعلِّق بما سبقه؛ فلغة التهديد والوعيد التي غلبت على الصيغة الخطابية، قد ضيَّقت حدود التوقع، وكسرت أفقه وانفتاحه، غير أنَّ محمولات الخطاب في هاتين الجملتين تبدو كأنها تضيف هاتين المقولتين إلى خطاب آخر لا علاقة له بالخطاب الذي أراد التوجه به إلى جمهور السامعين، وربما يقصد من وراء عرضه اللغوي هذا وجود متلقٍّ آخر قد تسرّه الرسالة التي يتضمنها فحوى الخطاب، إذْ يقول: « فَرُبَّ مَسُوءٍ بِقُدُوْمِنَا سَنَسُرُّهُ، وَمَسْرُورٍ بِقُدُوْمِنَا سَنَسُوْؤُه»، وهذا يفتتح أفقاً لتلقٍّ آخر، يبدو من خلاله أنَّ هناك نوعاً من المتلقين، ليس من الضروري أنْ يكونوا من جملة جمهور السامعين، متلق آخر شمله سوء الوضع السياقي أو التاريخي، أو الاجتماعي، قد يكون معنياً بنتيجة هذا المحمول الخطابي أكثر من السامع الذي تفصله عن المرسل أمتار مكانيَّة قليلة، ولا زمان يفصل بين فعل القول وفعل التلقِّي.

ثم يستأنف المرسل خطابه الذي بدأه، والذي صار يغلب عليه نوع من ضبط الانفعال الكلامي، فيقول: «أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّا أَصْبَحْنَا لَكُم سَادة، وَعَنْكُم ذَادَةً، نَسُوسُكُم بِسُلْطَانِ اللهِ الذِي أَعْطَانَا، وَنَذُوْدُ عَنْكُم بِفَيءِ اللهِ الذِي خَوَّلَنَا، فَلَنَا عَلِيْكُم السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ فِيْمَا أَحْبَبْنَا، وَلَكُم عَلَيْنَا العَدْلُ والإنصافُ فِيمَا وُلِّيْنَا».

في هذا النص يقوم محمول الرسالة التي تحمل القيمة التواصلية التي أرادها المرسل، ما بين مفردتين أو دالتين لغويتين (ما لنا_ما علينا)، وما بين دلالتي المفردتين ينجز النص الخطابي قصديته، فمجمل الحجج والبراهين والأدلَّة والاستلزامات الحواريَّة والمقاصد الإخباريَّة والتواصليَّة والاستعمالات اللغويَّة التي يبنى عليها الخطاب، تقع ما بين طرفي مقولة الرسالة:

المرسل	الرسالة	المرسل إليه
الخطيب	ما لنا — ما علينا	المتلقي أو جمهور السامعين
السمع والطاعة		العدل والإنصاف
لست محتجباً عن طالب حاجة		استوجبوا العدل والإنصاف
ولا حابساً عطاء ولا رزقاً		ادعوا الله بالصلاح لأئمكتم

تتحدد دلالات السمع والطاعة كما أرادها الخطيب (المرسل)، بالامتثال للأوامر كما وردت في نص الخطبة بأكمله، واجتناب النواهي وترك المكروهات، وإلا فالعقوبة كما جاء على ذكرها، أمَّا في حالة أنْ يدرك المتلقي أو جمهور السامعين، أو (المرسل إليه) المقصد من وراء رسالة المتكلم، فيغدو ما لهُ مقترن بما على المرسل أنْ يقوم به، إذاً هي علاقة ذات وجهين: قيام المتكلم (المرسل) بالفعل يؤدِّي إلى حصول المرسل إليه على نتائج الفعل، أيْ إذا قام المرسِل بفعل العدل والإنصاف، فإن المرسَل إليه قد استوجب الحصول على نتيجة الفعل، وقد قرنه المرسِل بالمرسَل إليه « فَاسْتَوْجِبُوا عَدْلَنَا وَفَيْئَنَا بِمُنَاصَحَتِكُم لَنَا»، أيْ إنَّ النتيجة المرجوة من الفعل الكلامي غير متحققة آنياً في الواقع، إلا أنَّ حصولها مشروط بمدى استجابة المرسَل إليه لأسباب حصولها؛ وعلى هذه القيمة التواصليَّة التي أرادها المرسل ينجز محمول الخطاب، مما قد يعني أنَّ المتلقي قد هيّأ نفسه للاستجابة بناء على محتوى الرسالة (ما لنا — ما علينا)، غير أنَّ الخطيب (المرسِل) يعود فيكسر نمط لغته التي غلب عليها التوازن، ويكسر توقُّع المتلقي الذي ظنّ أنَّ الأمور قد أصبحت في خواتيمها، وينهي خطبته بخاتمة عنيفة سمتها التهديد والوعيد، فيقول: « وَايمُ اللهِ... إنَّ لِي فِيكُم

لَصَرْعَى كَثِيْرَة، فَلْيَحْذَرْ كُلَّ امْرِئٍ مِنْكُم أَنْ يَكُوْنَ مِنْ صَرْعَاي». وهذه المفاجأة النصيَّة الأخرى تضع مفاهيم الرسالة التي عرضها في نصِّه السابق على حافة الحذر أو الشك في محتواها، أو في قدرة المتلقِّي على التقاط القصديَّة، أو قدرة المرسل على الإفهام وإنجاح عمليَّة التواصل، بذلك يكون مضمون الرسالة قد كسر محتواه، أو تعرَّض لأذى دلاليٍّ ناتج من معطيات اللغة التي ختمت بها الخطبة.

خاتمة:

يبدو من الصعوبة بمكان تحديد جملة أو متوالية من الجمل تعدُّ خاتمة للبحث، غير أنَّ ما يمكن أنْ يقال في هذا المقام اللساني:

1 – إنَّ تطبيق النظريات اللسانية الحديثة على المدونات التاريخية القديمة ليس أمراً سهلاً، وبالتحديد نظرية التلقي، وبعبارة أدق: تطبيق مفهوم التلقي أو كسر أفق التلقي على النصوص القديمة، والخطبة منها على وجه التحديد؛ فالخطبة تفترض متلقياً قريباً زمانياً ومكانياً من المرسل، ولا يمكن العودة بالتاريخ من أجل رصد الاستجابات، أو فعل التلقِّي الذي اصطِلح عليه بالسامع. وهذا الاصطلاح؛ أي السامع، هو المتلقِّي الحقيقي الذي توجه الخطاب النصي في الخطبة إليه. ولا يمكن أيضاً أن نطبق نظرية التلقي التي تعنى بالقارئ أو فعل القراءة تطبيقاً مثالياً على السامع، فالقارئ قد يكون حديثاً جداً، ويفصله عن الخطيب والسامع مسافة زمنية كبيرة جداً، ومسافة قرائية و" تلقيّة". فليس من الممكن ربط القارئ بوصفه متلقِّياً حديثاً، بالمتلقي القديم (السامع)، لا من حيث الدراسة، ولا من حيث التطبيق.

2 حاول البحث تطبيق مفهوم المفاجأة أو كسر أفق التوقع، بناءً على المعطيات اللغوية التي حكمت بنية النص وإنتاجه، والاستدلال على نمط التلقي الذي اضطلع به السامع (المتلقي الآخر)، من خلال الافتراضات المسبقة التي تواضع عليها النص، ومن خلال الاستجابات التي يمكن أن يقدمها مفهوم الحجة أو الاستدلال البرهاني.

3 من الجدير ذكره في البحث سعيه إلى الإتيان بالجديد في محاولة معرفة مرونة الدراسات اللسانيَّة الحديثة، وقدرتها على التعامل مع النصوص المختلفة عبر التاريخ اللغوي والأدبي. فالخطبة بوصفها أنموذجاً لغوياً تواصلّياً خاصّاً، تكمن خصوصيته في تواصل سمعي وبصري، كما هي الحال في المسرح؛ إذْ ليس من الممكن رصد التلقِّي فيه عبر المدونة النصيَّة فقط، ولا بدَّ من التلقِّي المباشر الذي يضطلع به المتفرج.

4 تقدِّم مفاهيم التداوليَّة مثل الحجاج والبرهنة والاستدلال، والأقوال المضمرة، والسياق، والحال، والمقام وسواها، آليَّات كشفت معاني النص، وساعدت في إزالة الغموض التحليلي الذي يقارب هذه الأنواع من النصوص اللغويَّة.

المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم.

1 – أرسطو طاليس. الخطابة، تحقيق عبد الرحمن بدوي، دار القلم، بيروت، لبنان، د.ط، 1979.

2 – آن روبول؛ جاك موشلار. التداولية اليوم، علم جديد في التواصل، ترجمة: د. سيف الدين دغفوس و د. محمد الشيباني، مراجعة: د. لطيف زيتوني، المنظمة العربية للترجمة، دار الطليعة للنشر، بيروت، ط1، 2003.

3 – بدوي طبانة. معجم البلاغة العربية، دار المنارة للنشر والتوزيع، جدة السعودية، ط3، 1408هـ – 1988م.

4 – بشرى موسى صالح. نظرية التلقي أصول وتطبيقات، المركز الثقافي العربي، الدار لبيضاء، ط 1، 2001.

5 – جمال الدين، محمد بن مكرم أبو الفضل بن منظور الإفريقي المصري. لسان العرب، تحقيق: عامر أحمد حيدر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2005.

6 – روبرت هولب: نظرية التلقي، مقدمة نقدية، ترجمة. عز الدين اسماعيل، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، ط 1، 2000.

7 – روحي البعلبكي. المورد، قاموس عربي انكليزي، دار العلم للملايين، بيروت، 1996.

8 – الشيخ سليمان بن محمد بن عمر البجيرمي الشافعي. البجيرمي على الخطيب، وهو حاشيته المسماة "تحفة الحبيب على شرح الخطيب" المعروف ب"الإقناع في حلّ ألفاظ أبي شجاع" للشيخ محمد بن أحمد الشربيني القاهري الشافعي المعروف بالخطيب الشربيني المتوفى سنة 977هـ، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، ط1، 1996.

9 – سمير سعيد حجازي. قاموس مصطلحات النقد الأدبي المعاصر، دار الآفاق العربية، ط1، 2001.

10 – عبد الناصر حسن محمد. التوصيل وقراءة النص الأدبي، المكتب المصري لتوزيع المطبوعات، القاهرة، د.ط، 1999.

11 – عبد الجليل مرتاض. في عالم النص والقراءة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د.ط، 2007.

12 – عثمان بن طالب. البراغماتية وعلم التراكيب بالاستناد إلى أمثلة عربية، سلسلة اللسانيات، عدد (64)، تونس، المطبعة العصرية، 1986.

13 – سامية الدريدي. الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة بنياته وأساليبه، عالم الكتب الحديث، إربد ، عمان، ط1، 2001.

14 – الشيخ علي محفوظ. فن الخطابة وإعداد الخطيب.دار النصر للطباعة الإسلامية، مصر. د.ط، د.ت.

15 – عمرو بن عثمان الجاحظ. البيان والتبيين، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة، الطبعة السابعة، 1998.

16 – مجدي وهبة وكامل المهندس. معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان، بيروت، ط 2، 1984.

17 – محمد أبو زهرة. الخطابة "أصولها، تاريخها في أزهى عصورها عند العرب، مطبعة العلوم، مصر، ط 1، 1934.

18 – د. محمد إسماعيل بصل. نحو نظرية لسانية مسرحية(مسرح سعد الله ونوس نموذجا تطبيقيا)،دار الينابيع للطباعة والنشر، سوريا، دمشق، د.ط،1996.

19 –محمد الباش. الكافي، معجم عربي حديث، شركة المطبوعات للنشر والتوزيع، بيروت، 1992.

20 – د. مسعود صحراوي. التداولية عند العلماء العرب، دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 2005.

21 – ميجان الرويلي وسعد البازعي. دليل الناقد الأدبي (إضاءة لأكثر من سبعين تياراً ومصطلحاً نقدياً معاصراً)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط2، 2005.

22 نصر حامد أبو زيد. إشكاليات القراءة وآليات التأويل، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط6، 2001.

المراجع الأجنبية:

-[1]Izer, wolfgang, l,acte de lecture,the,oridele,ffesthe, tique, traduit par: Evelynesznyser, Pieremardazee´dideure- 1976.

-[2]Jauss (H.R) pour uneesthethetique de larecption, traduit par: Cloudemaillard, preface: Jean starobinski, edgallinard, PARIS, 1978